علاقة المحكوم بالحاكم

أول خصائص الحكم الفردي كما يظهر من تاريخ الاستبداد هو كبرياء الحاكم وتعاليه. وليس الكبر الذي نعنيه هنا عقدة الصنعة التي تجعل شابًا طائشًا يسير في الطريق في خيلائه وهو معجب بنفسه مختالا بثيابه، أو ذاك الذي يجعل الموظف في ديوانه يجحد حق العمل الذي استأجرته الدولة لإتمامه فيتشاغل عنه ويتعالى على الجمهور المحتاج إليه ويعتقد أن ما يقدمه إليهم من خدمة منة تستحق الشكر لا بالقول فقط بل بعطايا تدخل إلى الأدراج المفتوحة والبطون التي نبتت من السحت.

إن هذه رذائل حقًا، وسواء دفع إليها النقص المركب أو الغرور اللاحق فإن عواقبها تكون محدودة الأثر إلى جانب سورات الكبر التي تجيش في نفس صاحب السلطة العامة فتحمله من مكانه حيث يعيش الناس على ظهر البسيطة إلى سماء يتخيلها وينظر إلى الناس من عليائها فإذا هو يرى العمالقة أقزامًا ومن دونه هباء ويحسب الخير الذي يعيش الناس فيضًا يتنزل من يده المباركة. ولا عجب آنذاك أن نسمع هؤلاء يرددون ما قاله الخديوي إسماعيل أحمد عرابي عندما طالبه باسم الأمة أن يمنح الشعب دستورًا: "وهل أنتم إلا عبيد إحساناتنا؟!"

إن الكبر في هذه الحالات لا يزال يتضخم حتى يتحول إلى جبروت، وللكبر إذا حكم تقاليد تحيط به، وكبرياء الحاكم ترمز إلى ضرب من "الوثنية السياسية" له مراسيم يتقنها الأشياع ويتلقفها الرعاع وسط قرع الطبول والدخان المتصاعد من المجامر والمباخر، وحيث يسود الحكم المطلق تنتقص الإنسانية من أطرافها بل إنها تصاب في مقتل. فعندما يتكبر الحاكم يتحول من حوله إلى أنصاف بشر أو أشباه بشر، وما ينقص من تمام إنسانيهم يضاف زورًا إلى هذا الكبير المغرور فيتحول، بأيديهم، إلى فرعون مسيطر بعدما كان فردًا كغيره من سائر أبناء الشعب. وفي ظل هذه الأجواء، يسوم الجبابرة الفراعنة الناس سوء العذاب مستعينين بأنظمة القمع البوليسية التي تقلم أي أظافر تفكر في التعرض للفراعين بسوء. وحيثما ظل الشغل الشاغل لبطانات الفراعين مدح الحكام وإطراؤهم والتهليل كذبًا لكافة حركاتهم وسكناتهم، يتذيل المجتمع ركب البشرية ويعيش أبد الدهر بين الحفر. فمجتمعات الطبل والزمر والشعارات مكانها مؤخرة الركب ومصيرها أن تظل تقتتل وتتصارع في داخلها حتى تفنى غير مأسوف عليها.

وفي مراحل كثيرة من التاريخ خلق الحكام أجواء وقرّت في أذهان شعوبهم وجلا من سطوتهم واعتقادًا بأن الملوك ليسوا من عبيد الله المألوفين بل هم أناس انقطعوا بالأبراج العالية التي يعيشون فيها عن الأرض واتصلوا بالسماء، فزعموا أنهم نسل آلهة وعاشوا بين الناس يبرهنون بأفعالهم على ذلك.

وعندما جئ بأعرابي يومًا في حضرة رسول الإسلام صلى الله عليه وسلم أخذته - أي الأعرابي - رعدة وهو يحسب نفسه قريبًا من أحد الملوك الجبابرة فقال له الرسول "هون عليك إني لست بملك، إنما أنا ابن امرأة من قريش كانت تأكل القديد". فأراد النبي صلي الله عليه وسلم أن يعرف الرجل أنه بشر مثله لا ملك فوقه، بل ونسب نفسه إلى أمه ليزداد تواضعًا وقربًا من الناس. ثم جاء الخلفاء من بعده وساروا على نفس المنهج وربطوا أنفسهم بالجماهير وما ادعى أي منهم أنه أنقى نسبًا أرفع مقامًا من أحد منهم.

وأجواء الحكم المطلق أرض خصبة تسير عليها جماهير العبيد الذين يرضخون لمذلة المستبدين ويلغون عقولهم وضمائرهم إما طوعًا أو كرهًا. وهؤلاء الناس من طبيعتهم أن يسارعوا إلى استرضاء رؤسائهم وإجابة رغباتهم أيما كانت ولو على حساب دينهم وأخلاقهم أو الكرامة أو العرض. والحكام المستبدون يباركون هذه الطبيعة ويولون أصحابها العطايا والنوال. وصفحات التاريخ ملأى بحالات نفاق ومداهنة تجاوزت سقف المنكرات، أقيمت فيها للأكاذيب سوق رائجة وقلبت الحقائق على نحو مقيت.

كان "المنتصر بالله" قبل توليه الخلافة ناقمًا على والده الخليفة "المتوكل على الله" طامعًا في منصبه فدبر لقتله بإيعاز من الأتراك الذين زينوا له سوء عمله، وكانت نفوذهم متصاعدة في دولة الخلافة آنذاك. وبالفعل فعل الولد بأبيه ما سولت له نفسه أن يفعله، وبدلا من أن يؤمر به إلى السجن ويدق عنقه وضعت الأكاليل على رأسه وصعد إلى سدة الخلافة. وليس هذا بمستغرب فالتاريخ مليء بمثل هذه الحادثات، لكن ما تشمئز منه النفس أن يأتي شاعر إلى المنتصر (واسمه محمد بن جعفر) فيمدحه قائلا:

لقد طال عهدي بالأمام محمد وما كنت أخشى أن يطول به عهدي

فأصبحت ذا بعد وداري قريبة فيا عجبًا من قرب داري ومن بعدي

رأيتك في بـرد النبـي مـحـمد كبدر الدجى بين العمامة والبرد

ومن عجائب القدر أن الذين تعاون معهم المنتصر لقتل أبيه هم أنفسهم من تآمروا لقتله ولنفس السبب الذي لأجله قتل أباه، هذا المثال المقزز يتكرر في كل زمان ومكان ومن الممكن إسقاطه على كثير من مجتمعاتنا، ومثل هؤلاء المداهنين لا يخلو منهم قطر أو مدينة أو قرية أو حتى مكتب عمل بسيط.

إننا إذا ما قمنا بدراسة المجتمعات الفاسدة سياسيًا وأمعنا في عللها أو تتبعنا أعمال الأدعياء وطلاب الزعامة أو استقصينا وسائلهم الملتوية في تسخير الجماهير للوصول إلى مآربهم على رقابهم لاحظنا أن النهضات الكبرى قد مُنيت بالفشل لأنها أصيبت برجال لا يحبون النجاح إلا إذا كان مسطرًا بأسمائهم ومن خلالهم، أما من خلال غيرهم فهو الخيبة والفشل ولربما نعتوه بأنه سبب استجلاب البأساء والضراء.

هؤلاء الناس يعيشون في غرف من المرايا لا يرون فيها إلا أنفسهم ولا يسمعون ولا يستمعون إلا لصوتهم. وقد تدفعهم انتهازيتهم إلى قراءة القرآن لا قربى إلى الله ولكن يستخدمون ذلك وسيلة يصلون بها إلى مآربهم، وقد يتصدقون لا عطفًا على محروم وإنما ليأسروا قلوب الناس بسخاء مزعوم، ولو خلا أحدهم بفقير لتركه يموت جوعًا دون أن يطعمه. ولست هنا في موضع التشكيك في نيات الناس وسرائرهم فالله تعالى هو وحده الأعلم بما في الصدور، لكننا نعلم أن في عالم السياسة كل شيء مباح. فقد قصد نابليون مصر على رأس الحملة الفرنسية غازيًا وهو يتودد إلى الشعب المصري المتدين بطبعه بشعارات تحمل كل معاني الاحترام للإسلام ورسوله وكتابه كما نقل الصلابي: "أيها المصريون قد قيل لكم إني ما نزلت لهذا الطرف إلا بقصد إزالة دينكم، فذلك كذب صريح فلا تصدقوه وقولوا للمغترين إنني ما قصدت إليكم إلا لأخلص حقكم من الظالمين وإنني أكثر من المماليك أعبد الله سبحانه وأحترم نبيه والقرآن العظيم". بل لقد تزوج بعض رجالات نابليون مسلمات كي يتخذوا ذلك ذريعة للتقرب إلى العوام أملا في الاستقرار. وما لبث أن أعمل في الشعب أبشع أنواع القتل وفتك بهم واستحل دماءهم وأعراضهم دونما رحمة أو إنسانية.

إن هؤلاء الأشخاص وأمثالهم ممن يصطنعون المكارم والتضحيات لا تستفيد منهم البلاد شيئًا من تضحياتهم ومكارمهم بل يكونوا عبئًا يثقل كاهلها ويعيق أي تقدم تنشده. ذلك أنهم ليس فيهم من يريد أن يكون جنديًا مجهولا يعمل في غير ما جلبة ولا ضجيج.

إن الدولة عندما تفسد بالاستبداد والاستعباد يكون الرياء العملة السائدة لتحقيق المنافع الزائلة وتقرير الأمجاد الزائفة، وعندها يكون حكم السادة والعبيد. وهنا نسأل، أما آن لنا أن نتعامل مع حكامنا بنمط آخر مختلف عن هذا النمط؟ أما آن لنا أن ندرك أننا كمحكومين لسنا أتباعًا لحكامنا نتملقهم ونرائيهم ونعطي الدنية في أنفسنا؟ لقد آن الأوان أن ننفض عن أنفسنا غبار الماضي بكل ما فيه من آلام وعيوب وأن نأخذ بأيدي حكامنا إن أحسنوا وأجادوا ونقف في وجههم إن ظلموا وجاروا دون أن تمنعنا أي قوة من أن نصدع بكلمة الحق في وجوههم مهما كلفنا ذلك من ثمن، فلا خير فينا إن لم نقلها ولا خير فيهم إن لم يسمعوها.